النص الشهير المعروف باسم «شكوى الفلاح الفصيح» المنقوش على بردية محفوظة في متحف برلين. يروي هذا النص قصة فلاح من وادي النطرون يسوق حميره المحملة ملحاً الى مدينة هيرمكيوبوليس ليبادل الملح بالغلال، ويلتقي، في الطريق، بواحد من رجال رئيس ديوان الملك فيستولي هذا على الحمير والملح. ويسعى الفلاح دون كلل حتى يصل الى رينس ــ ميرو، رئيس ديوان الملك، ليقدم له شكواه. ومن هذه القصة يمكننا ان نتعرف على بعض السمات الأساسية للشخصية المصرية في ذلك الوقت، فهي تتسم بالسمات التالية:

اولاً: ان الفلاح عنيد ودؤوب وصبور في صراعه من اجل استعادة حقوقه. فحينما يضربه توتي (الموظف الذي سرق حميره) ويأمره بالصمت، يرد عليه الفلاح قائلاً: «تضربني، وتستولي على مالي، ثم تريدني ان اسكت؟».

وبعد عشرة ايام من الوقوف امام باب توتي يحاول اقناعه برد حميره دون جدوى يتحول الفلاح الى السعي لمقابلة رئيس البلاط، ولكن الموظفين يردونه، ويصورون القصة لرئيس البلاط بما يتفق مع مصالح زميلهم «توتي»، الا ان الفلاح لا ييأس ويواصل الجهد حتى ينجح اخيراً في مقابلة رئيس البلاط رينس ــ ميرو ويشرح له شكواه.

ثانياً: نلمس، في هذه الشكوى، ايضاً، وجهة نظر الرأي العام، اي وجهة النظر الشعبية فيما يجب ان تكون عليه سياسة الدولة ازاء عامة الشعب. فإذا كان رمسيس الثاني، في خطابه المشار اليه سابقاً، في الفلاحين الذين كانوا يعملون في المحاجر، قد حدد تصوره لما يجب ان يكون عليه «الرجال الطيبون ذوو الأخلاق» ووضع المقياس لذلك: «إنهم يسهرون على العمل طوال الوقت، ولا يعرفون التعب، وينفذون واجباتهم على الوجه الأكمل، ويخدمون في الجبال المقدسة». فإن الشعب، من الناحية الأخرى، وعلى لسان الفلاح خنوم ــ انوب، في شكواه، يحدد تصوره لواجبات الحكومة ازاء المواطنين: «ان تقضي على الظلم، وتقيم العدل، وتوفر الطعام والملبس والدفء، وان تقف الى جانب الفقير ضد ظالميه».

وإذا كان مقياس العمل الصالح، من وجهة نظر الدولة المركزية هو التفاني في خدمة الملك، فإن مقياس العمل الصالح، من وجهة نظر الشعب، وكما جاء في شكوى الفلاح هو «توفير الأمن والعدالة».

ثالثاً: وفيما يتعلق بالدين، فإننا نجد، في هذه الشكوى، ملامح مفهومات دينية جديدة تشكل بداية لما يمكن أن نسميه الايديولوجية الدينية الشعبية؛ حيث تتبلور النظرة النفعية للقيم ولقوانين السلوك الخلقي: فالصالح المؤمن، كما يقول الفلاح، هو من يهتم بأرزاق الناس، ويحميهم من المعتدين (على ارزاقهم)، والمصير في الآخرة لن يتوقف على ما يبنيه ملك من اهرامات ومعابد، ولكن على ما يقدمه للشعب من حماية وعدل. والفلاح، في شكواه، يحذر رئيس الديوان الملكي من انه اذا لم يستجب لشكواه، ويقف الى جانبه فإن كفة ذنوبه ستكون هي الراجحة يوم الحساب، و«معات» إلهة العدل والحق لن تخلد